

تقديم

يعالج هذا الكتاب "المغرب العربي من خلال خلافة المعز لدين الله الفاطمي" لمؤلفه الدكتور/ صالح عمار الحاج .

موضوعا هاما عن شخصية إسلامية غيرت مجرى تاريخ المغرب والمشرق، تلك الشخصية التي يذكرها التاريخ كلما ورد اسم القاهرة التي بنيت فى عهده، وصارت حاضرة الدولة الإسلامية الجديدة، ومقر الحكم الدولة الفاطمية التي كانت أعظم دولة شعبية فى التاريخ الاسلامى، وقد بلغت ذروتها فى عهد المعز الذى أعز الله به الإسلام والمسلمين .

ويعتبر المعز لدين الله الفاطمي رابع خلفاء الدولة وأولهم فى مصر وحكم لمدة أربع وعشرين عاما استخدم فيها السيف وصندوق الجباية، ولذا لم تشهد بلدان المغرب خلال العصر الفاطمي بل وعصر المعز نهضة فكرية أو عقائدية أو عمرانية، وكان كل الذين نشطوا لنشر الدعوة الشعبية غرباء باستثناء القاضى النعمان، وقد سعى الفاطميون إلى تطبيق عقيدتهم بالعنف والتنكيل، وليس بلا قناع والموعظة الحسنة لأنهم افتقروا إلى قوة الإقناع وإذا كان المعز قد حقق وحده المغرب الكبير لكنها لم تعش طويلا إلا إنها كانت بادرة فريدة من نوعها لكل الدول صابرت بعد ذلك وخاصته دولتى المرابطين والموحدين وإذا أضفنا إلى ذلك أن فرض التعاون مع الأندلس قد صنعت منذ أوروبا برا وبحرا، بل أن المعز ضيع العز منه التى لاحق له بعد معركة تامجاز للبقاء فى الجنوب الايطالى، وقد شكل ضياع هذا الجزء من المسلمين مقدمة لضياع صقلية، ومع رحيل المعز إلى مصر كانت الأندلس تمر بعصر التحولات الكبرى وظهور دول الطوائف ، واستشراف حركة الاستغلاب الصليبية فى الأندلس، والتحضير الفكرى والعقائدى والسياسى فى أوروبا الغربية لبدء الحروب الصليبية الكبرى ضد بلاد الشام .

لقد كان المعز الفاطمي من أعظم الرجال في تاريخ الفاطميين في المغرب والمشرق، لكن الشعور بالقداسة والعصمة والتربية الذهبية جعلته يعرف مؤهلاته بالاتجاه المعاكس، والأمر الغريب أن الدعوة الإسماعيلية التي اتسمت بالعالمية لم تنشط في بلدان أفريقيا، وركزت جهودها فقط على دار الإسلام، وذلك على عكس دولة المرابطين التي وزعت نشاطها على المغرب والأندلس وعلى السودان الغربي لقد انتقل المغرب إلى المشرق في عهد المعز، ولأول مرة في التاريخ تم حكم بلدان المغرب كلها من مصر والشام الجنوبي، ولذا صابر عهده بحثا في التاريخ الإسلامي في المغرب والمشرق والأندلس وحوض البحر المتوسط، والعلاقات مع أوروبا الغربية والشرقية.

لقد حاول مؤلف الكتاب من خلال فصوله السبع الإمام بهذه الشخصية من خلال الصورة العامة للمغرب الإسلامي والمشرق العربي، حيث درس في الفصل الأول الأوضاع السياسية في المغرب الكبير قبل قيام الدولة الفاطمية وهو مدخل هام يوضح أسباب ارتجال المعز لدين الله إلى مصر وترك شئون المغرب لقوة مغربية محلية، وحاول المؤلف في الفصل الثاني دراسة الدعوة الإسماعيلية حتى وصول الفاطميين إلى السلطة، وفي الفصل الثالث ركز المؤلف على المعز لسدين الله الفاطمي ونشأته وتحليل شخصيته بشكل مبتكر حيث سلط الأضواء على ثقافته العامة، ومذهبيته العالقة، وإتقانه فنون العلم الباطني والتأويل والاعتداد بالنفس، وإيمانه بأنه إمام حق صحيح الانتماء إلى نسب المصطفى صلى الله عليه وسلم. كما أوضح المؤلف صورة المعز في المصادر التي عاصرتة، وأنه كان رجلا حازما عفيفا تقيا، ليست له قصص مع نساء القصر أو مع غلماته، أي أنه رسم صورة واقعية حيادية عن هذا الحاكم دون تحيز لأي رأي.

وفي الفصل الرابع حاول المؤلف دراسة العلاقات مع القوى المحلفة في بلدان المغرب على عهد المعز لدين الله .

وفى الفصل الخامس ناقش المؤلف العلاقات عبر البحر المتوسط، وركز على جزيرة صقلية التي كانت شبه مستقلة تحت أسرة آل الكلبى التي كانت على علاقة طيبة مع المعز لدين الله.

وفى الفصل السادس ناقش المؤلف عملية استيلاء الفاطميين على مصر، ثم استيلاء ابن فلاح على دمشق، ثم عرج المؤلف إلى الإحداث الشامية، وموقف أهل الشام من جيوش الفاطميين.

وصابر الفصل الأخير ليعطى صورة عن مؤسسات الدولة وابرز العاملين فيها حيث ابرز أن جميع السلطات فى الدولة الفاطمية فى أيدي المعز لان الدولة كانت ثيوقراطية كمحور كل ما فيها حول الإمام صاحب الشخصية المقدسة.

وفى الحقيقة بعد هذا العرض للمغرب العربى من خلال خلافة المعز نجح المؤلف فى عرض هذه الصورة التاريخية بعد جهد كبير، وبعد دراسة موضوعية متوازنة، ولم يغرق أفكاره وسط هذه القلاقل والاضطرابات، بل حاول البعد عن التكرار والتعميم، واستخدام المنهج التاريخى التحليلى والمقارن لكى يحلل الأحداث التاريخية فى إطار من الموضوعية والحيادية التى تقدر فى الدراسات التاريخية الحالية.

لقد نجح المؤلف فى تحليل أسباب اتجاه الفاطميين إلى مصر وأسباب فشل بقاء الفاطميين فى المغرب، تلك النقلة البشرية لقبائل مغربية إلى مصر وبلاد الشام . وهو من الإحداث الفريدة فى التاريخ حيث تحول المغرب إلى المشرق فى سابقة لم يحدث مثلها فى تاريخ المقطعين ومن هنا جاءت أهمية هذا الكتاب بملاحقة وخرائطة ليقدم للمكتبة العربية موضوعا هاما ثار حوله نقاش وخلاف كبير لكن نجح المؤلف بحيادية وموضوعية أن يعطى صورة تاريخية واقعية تحليلية لفترة هامة من تاريخ امتنا الإسلامية.

انه كتاب يقسم بالمنهجية التاريخية، والتحليل الموضوعي، والأسلوب الراجين، والأفكار السلسلة والعبارات البسيطة التي أوضحت ما يهدف إليه المؤلف معتمدا على مصادر أولية وأخرى ثانوية فضلا عن عدد كبير من المراجع العلمية التي أثرت الكتاب، وجعلته مرجعا لا غنى له لكل من يدرس تاريخ هذه المنطقة في تلك الفترة الزمنية .

الشكر والتحية لهذا الباحث الذي قدم صورة واقعية وموضوعية فلما نجد لها مثيلا في الدراسات التاريخية المعاصرة.

والله الموفق وعلى الله القصد

أ.د عبد الله عبد الرازق إبراهيم

أستاذ التاريخ بمعهد البحوث

والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة

2004/8/31